

أكراد العراق بين الكماشة التركية - الإيرانية من دون مظلة دولية

الضغوط على الأكراد تتجاوز الحسابات السياسية والدواعي الأمنية إلى النزاع القومية المتشددة



الوضع الذي يعيشه أكراد العراق حاليا في إقليمهم بشمال البلاد ليس مريحا ولا يشبه ما كانت عليه أوضاع الإقليم في سنوات الوفرة والرفاه والاستقرار التي مرت به سابقا عندما كان محط اهتمام قوى دولية على رأسها الولايات المتحدة وذلك لحسابات تخص تلك القوى وليس لمصلحة الأكراد. أما اليوم فهو موضع ضغوط وتهديدات إيرانية وتركية بأهداف متقاربة.

أربيل (العراق) - دعت قيادة كردستان العراق بمناسبة مرور ثلاثين سنة على صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 688 المجتمع الدولي لدعمها ومساندتها "على اتخاذ خطوات أكبر صوب مستقبل أفضل مشترك وآمن ومستقر ومتقدم مع العراق والمنطقة والعالم"، ذلك أن القرار الصادر في الخامس من أبريل سنة 1991 والذي طالب بحماية أكراد العراق واتخاذته كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة مبرزاً لإنشاء منطقتي حظر طيران في شمال العراق وجنوبه، كان عنواناً لاهتمام دولي كبير بأكراد العراق تراجعت اليوم إلى حده الأدنى تاركا هؤلاء عُرضة لضغوط شديدة من قبل خصومهم وأعدائهم الإقليميين والمحليين.

وقال نيجيرفان البارزاني رئيس الإقليم الذي يدين للاهتمام الدولي والأميركي بحصوله على الحكم الذاتي إن "المشاكل والعراقيل التي وضعت في طريق الإقليم لم تكن قليلة وقطعت عليه طريق المزيد من التقدم"، معتبرا أن "الخيار الوحيد المتاح هو أن نخطو صوب مستقبل أفضل من خلال التلاحم والتشارك والإفادة من تجارب الماضي، والحوار والتفاهم والاتفاق مع الحكومة الاتحادية العراقية بدعم ومشاركة ومساعدة المجتمع الدولي".

ويجد هذا الخطاب مبررا له في واقع العلاقة القائمة حاليا بين إقليم كردستان العراق والأحزاب والفصائل الشيعية القوية المسيطرة على مقاليد الحكم في العراق، والتي ضاعفت خلال الفترة الأخيرة من ضغوطها على الإقليم سواء عبر التضييق عليه ماليا من خلال تقليص حصته من الموازنة الاتحادية ومحاولتها تعطيل وصولها إليه، أو عبر تحرش الميليشيات الشيعية بإراضيه عبر استهداف مواقع داخلها بالصواريخ.

حكومة الإقليم التي بلغت بها الأزمة حد العجز عن الإيفاء بالتزاماتها الأساسية ومن ضمنها دفع رواتب الموظفين بشكل دوري منتظم وفي مواعيدها المحددة، الأمر الذي تسبب بحالة من الاحتقان الشعبي تحولت في أكثر من مناسبة إلى احتجاجات في الشوارع.

وليس الضغط المالي والاقتصادي هو الورقة الوحيدة بيد خصوم الإقليم المحليين الذين مروا في أكثر من مناسبة إلى التحرش الأمني واستخدام العنف. ففي منتصف فبراير الماضي تعرض مطار أربيل الدولي الذي يضم قاعدة للقوات الأمريكية لكصف صاروخي خلف قتلى وجرحى وخسائر مادية ووجهت أصابع الاتهام فوراً إلى الميليشيات الشيعية الموالية لإيران والتي تهاجر باستهداف الوجود العسكري الأميركي على الأراضي العراقية وتقول إنها تقاومه وتعمل على إنهائه.

لكن صواريخ الميليشيات الشيعية المرتبطة بالحرس الثوري الإيراني والتي ينظر إليها كرسائل تحذير لإقليم كردستان العراق من توسيع التعاون العسكري مع الولايات المتحدة واستقبال المزيد من قواتها على أرضيه، لا تقارن بما تفرضه تركيا المجاورة من ضغوط عسكرية متصاعدة على الإقليم بدرية ملاحقة عناصر حزب العمال الكردستاني. وفي غياب أي اعتراض دولي منحت تركيا نفسها قدرا كبيرا من حرية التدخل العسكري الجوي والبري في إقليم كردستان العراق حتى أن تقريراً لصحيفة الغارديان البريطانية تحدثت عن تحول منطقة العمادية بجبال زاغروس إلى منطقة شبه محظورة على سكانها بفعل كثافة عمليات الطيران التركي المسيّر الذي لا يفترق بين المدنيين ومسليحي حزب العمال الأمر الذي قيد حركة السكان وضيق عليهم سبل العيش ودفع كثيرين منهم إلى مغادرة منطقتهم.

ووردت في التقرير الذي أعدته بيان مكيران شهادات عدد من سكان منطقة العمادية الممتدة في منطقة كردستان بين تركيا والعراق والتي تتعرض لضربات من الطائرات المسييرة التركية منذ أن صعدت تركيا حملتها ضد حزب العمال الكردستاني صيف العام الماضي. ويشير التقرير إلى قائمة متزايدة من الضحايا المدنيين الأكراد جراء تلك الحملة وفقا لبيانات من منظمة إير وورس التي وثقت مقتل ما بين 27 و33

مدنيا وجرح 23 شخصا العام الماضي، أي ما يزيد عن ضعف عدد القتلى المدنيين في عام 2019.

ويتشاهد السكان في العمادية وغيرها من المناطق المستهدفة المسيرات التركية وهي تحلق بصمت فوق قمم الجبال. ويقول السكان إن الضربات الجوية شملت حوالي سبعين في المئة من قمم المنطقة الوعرة.

وأجبرت زيادة العنف الكثير من سكان العمادية على ترك مناطقهم واللجوء إلى المقاطعات المجاورة ما أدى إلى اكتظاظها ونقص فرص العمل فيها.

وبسبب محدودية الفرص الاقتصادية هناك يضطر العديد منهم إلى العودة إلى الجبال التي كان يطلق عليها في عهد صدام حسين اسم المنطقة المحظورة لأنها كانت تستضيف المقاتلين الأكراد. ويشير تقرير الغارديان أيضا إلى أن الأسر المنضرة التي لجأت لناحية ديرلوك لم تلق تعويضا أو دعما من قبل حكومة إقليم كردستان العراق أو تركيا عن خسائرها.

ويقول أحمد نور الدين محي الدين الذي قتل شقيقه وابن أخيه أثناء بحثهما عن الطعام في أحد الأودية "نحن خائفون للغاية من البحث عن الطعام في المنطقة الآن على الرغم من أنه يتعين علينا ذلك للبقاء على قيد الحياة. لا يوجد سبب لوجود حزب العمال الكردستاني أو تركيا هنا.. إنهم موجودون هنا فقط ليديروا حياتنا".

أما تمار أمين فقد ابتنته ووالدته أثناء القتال عام 1997 وقتل ابنه الأب لسنة أطفال في غارة تركية عام 2017 ثم فقد هو وساقه اليمن في عام 2018 بعد أن داس على لغم يعتقد أن حزب العمال الكردستاني زرعه. وهو يقول "في كل عام يتم تقييد تحركاتنا بشكل أكبر. أخشئ السماح للأطفال بالخروج للعب وأتوقع أن يتم استهدافنا في أي لحظة".

عداء قومي

كان تدخل القوات التركية بشكل محدود في أراضي كردستان العراق جزءا من حرب تركيا المتواصلة منذ عقود ضد حزب العمال الكردستاني، لكن ذلك التدخل عرف خلال السنوات الأخيرة تصعيدا وتوسعا كبيرين، مرتبطين

بالسياسة الخشنة التي أصبحت تركيا تنتهجها في عهد الرئيس رجب طيب أردوغان والتي لا تستثني التدخل العسكري خارج الحدود.

ولم تجد قيادة إقليم كردستان العراق بدا من الحفاظ على مستوى جيد من العلاقات مع تركيا على أرضية مصالح ضرورية للإقليم من بينها تسويق نفطه عبر الأراضي التركية واستيراد الكثير من السلع الأساسية من تركيا والاستفادة

من نشاط المعابر الحدودية وما تدره من عوائد، واضطرت في سبيل الحفاظ على تلك العلاقات لتقديم تسهيلات عسكرية وأمنية لانقرة وغضت الطرف عن إقامتها قواعد عسكرية على أراضي الإقليم.

لكن تصعيد النشاط العسكري التركي في أراضي الإقليم وتوسيع مده وتحويله من مجرد عمليات خاطفة إلى حضور عسكري دائم، لم يكن فقط بدافع الدواعي الأمنية بل أيضا بدافع النزاع القومية المتشددة إزاء الأكراد بصفة عامة وحيثما وجدوا سواء داخل تركيا أو في سوريا والعراق وإيران.

وقد اتضحت تلك النزاع بشكل جلي في فترة حكم حزب العدالة والتنمية بقيادة أردوغان الذي لم ينقطع عن ممارسة ضغوط وتضييق على الكونكردي في تركيا تكاد تسحب من أبناء ذلك الكونكراد حق المشاركة السياسية المكفولة لهم بحكم القانون، في وقت تضغط فيه الله العسكرية على أكراد سوريا المجاورة لمنعهم من استغلال حالة الحرب في البلاد لتأسيس إقليم لهم على غرار أكراد العراق.

خطأ أحمر

لكن سلّمت تركيا بالحكم الذاتي الذي يتمتع به إقليم كردستان العراق، وهو وضع نشأ وتحوّل إلى أمر واقع في ظروف مختلفة، فإنها تتعمد من خلال تكثيف نشاطها العسكري على أراضيها نزع أي مقومات للسيادة على تلك الأراضي وقطع الطريق على طموح قيادته لتجاوز الخط الأحمر وتأسيس دولة كردية مستقلة عن العراق، وهو طموح عبّرت عنه تلك القيادة بالفعل بل حاولت تحقيقه من خلال استفتاء على الاستقلال نظمته في سبتمبر 2017 عندما رأى مسعود البارزاني رئيس الإقليم آنذاك وزعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، أن اللحظة مناسبة في

واقع صعب ومستقبل غامض

ظرف الحرب التي كان يخوضها العراق ضد تنظيم الدولة الإسلامية وشاركت فيها البشمركة الكردية (جيش الإقليم) بغاوية وتمكنت خلالها من دخول أراضي متنازع عليها مع الدولة العراقية اعتبرها البارزاني ضمن حدود الإقليم التي قال إنه أعيد رسمها بالدم.

الضغط على أكراد العراق باستخدام المسألة المالية يرتقي إلى محاولة خنق لإقليمهم وإفشال تجربته في الحكم الذاتي

لكن الزعيم الكردي البارز فضل مجدداً في تحقيق الحلم القديم المتوارث في إنشاء دولة قومية للأكراد والذي استحال تحقيقه في أكثر من محطة تاريخية. فقد بنى البارزاني خطوته تلك على حسابات خاطئة أخذت في الاعتبار الإهتمام الدولي والأميركي السابق بالإقليم والذي جاء في تسعينيات القرن الماضي ضمن المسار الذي شرعت فيه الولايات المتحدة آنذاك لإسقاط نظام الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، فكان من ضمن التضييق الشديدة التي مورست ضده تقوية الأكراد في شمال العراق وتحويل إقليمهم إلى كيان شبه مستقل وتهيئة المجال لتواجد القوات الأميركية هناك وهو ما تم لاحقا بالفعل خلال غزو سنة 2003.

وفوجئ البارزاني بأن ذلك الإهتمام تراجع إلى حدوده الدنيا عندما ترك الإقليم لمصيره في مواجهة ردّ إيراني تركي عراقي مشترك على الاستفتاء بلغ درجة من الحزم لم يكن يتوقعها ووصل حدّ التهديد بمحاصرة الإقليم وإغلاق منافذه وتجفيف موارده المالية، فيما بادرت القوات العراقية بما في ذلك ميليشيات الحشد الشعبي بالزحف صوب مناطق تسيطر عليها البشمركة في شمال العراق بينها أجزاء من محافظة كركوك الغنية بالنفط ودفعها إلى التراجع إلى داخل حدود الإقليم القائمة قبل حرب داعش.

وجاء ذلك في ظلّ صمت أميركي غير متوقع من قبل البارزاني الذي فهم أنّ واشنطن تركته لمصيره وجعلته يجرب خوض تجربة استفتاء الاستقلال ومواجهة نتائجها إن سلبا أو إيجابا.

مسعود البارزاني أقام استفتاء الاستقلال على حسابات خاطئة وفوجئ بخذلان الولايات المتحدة التي تركته لمصيره في مواجهة الرد الإيراني - التركي - العراقي العاصف

